الديمقراطية والوباء الكبير

تحليلات

جون كين

١٨ ابريل ٢٠٢٠

الشرق للأبحاث الاستراتيجية
AL SHARQ STRATEGIC RESEARCH

منتدى الشرق مؤسسة غير منحازة حزبيا تجاه قضايا السياسات. الأراء والرؤى المعبر عنها في هذه النشرية تنتمي إلى صاحبها ولا تعكس بالضرورة توجهات منتدى الشرق.
حقوق النشر تعود إلى منتدى الشرق ٢٠٢٠
جميع الحقوق محفوظة
التصميم والقالب من تصميم: جواد أبازيد
لا يمكن إعادة طباعته بشكل كلي أو جزئي، دون موافقة مسبقة من منتدى الشرق. وإذا تم إستعمال أي جزء من المنشور، يجب ذكر كل من المؤلف ومنتدى الشرق.
العنوان: حي يني بوسنة. شارع ٢٩ أكيم. فيزيون بارك، مبنى أ واحد. الدور: ٦. الرقم البريدي: ٣٤١٩٧. بهاتشلي إيفلر/إسطنبول/تركيا.
رقم الهاتف: ٠٠٩٠٢١٢٦٠٣١٨١٥
رقم الفاكس: ٠٠٩٠٢١٢٦٠٣١٦٦٥
الإيميل: info@sharqforum.org

المحتوى

الاشتراكية بين عشية وضحاها	٥
القيادة	٧
قانون الطوارئ	٨
الديمقراطية الرقابية	١٠
الصين	١١
الاستبداد الجديد	١٢
عن المؤلف	١٤
عن الشرق	١٤

خرَّبت الأوبئة عالمنا كثيراً وفي كل مرة تزورنا فيها نعيش لحظات طاحنة تتعثر فيها الحياة اليومية ويملؤها القلق والانكفاء السلبي على أنفسنا. إذ تطمس الأوبئة العادات القديمة وتجرح القلوب ويرتسم معها الموت ويخاف الناس، أما اليقينيات فتتلاشى. ويشعر الناس في أعماقهم بضرورة التفكّر بالأشياء من جديد، مثلما أفعلُ الآن في حجري الإجباري، أعُد الليالي وأراني محظوظًا لخروجي سالمًا من ضجّة الوباء في بريطانيا، وخروجي قبل أشهر قليلة من ووهان مركز الوباء بعد رحلة تدريس مطوّلة.

ومن الطبيعي أن يحاول الناس في خضم الألم والهلع فهمَ ما يجري، فماذا يمكننا أن نقول عن أسباب وآثار هذا الوباء الكبير وأهميته التاريخية؟ بعض الأجوبة تتحدث عن نفسها بوضوح.

عادة الأوبئة الهجوم دون إنذار، ولكن الوباء يختلف هذه المرة- رغم كونه مفاجئاً- من عدة وجوه: أوضح الدروس أن فرسان الخيول الشاحبة لا يظهرون دومًا بعد الحروب، على عكس ما حصل في الوباء سيئ التسمية، الإنفلونزا الإسبانية في أعوام ١٩١٨-١٩٢٠، التي انطلقت -في الغالب- من ولاية كانساس الأمريكية، وأصابت قرابة ٥٠٠ مليون إنسان، ما يعني آنذاك ثلث الكوكب.

في البداية شعرنا مع الوباء الكبير بالاعتداد بأنفسنا لأنه جاء في وقت السلام لا الحرب ولذا كان الإنكار. حتى الآن لا تصدق مجموعة من السياسيين وملايين المواطنين ما يحصل، معاندين بغبائهم وأنانيتهم، وواثقون بأنها مجرد خدعة أو تضخيم إعلامي سينكشف قريبًا. وكأنهم ينجذبون سرًا للوباء، ربما مثل ما أشار إليه تشارلز ديكنز في قصة مدينتين: رغبة غريبة بالإصابة بالفيروس أو رؤيته يطيح بالآخرين قتلى.

أكباش الفداء مختلفة أيضًا هذه المرة، كان اليهود موضع اتهام الأساقفة والإمبراطور الروماني والسلطات المحلية في أوروبا منتصف القرن الرابع عشر بأنهم نشروا الطاعون الدملي. واستهدفهم هتلر مجددًا في أول خطاب مسجّل ألقاه في حانة هوفبراوكيلير في ميونخ، متهمًا إياهم بـ»الجشع للمال والسيطرة» وبنشر «السلّ العرقي بين الأمم». أما المستهدَفون اليوم فليسوا اليهود أو السود، ولا السكّان الأصليين. وأفلت من الاستهداف ذوو الإعاقة والفقراء ومجتمع الميم (مثليي الجنس ومزدوجي التوجه الجنسي والمتحولين جنسيًا)، على الأقل حتى اللحظة.

ربما بسبب الصفات «الديمقراطية» لهذا الفيروس شديد العدوى، لقد كان من الجدير بالانتباه ملاحظة قدرته الفائقة على أن يصيب الجميع بلا تمييز وفي كل مكان ليحصد أمثال هارفي واينستين، وبوريس جونسون والأمير تشارلز. ولعل المجتمعات المدنية في الديمقراطيات القديمة لجيلنا تعلمت درس أهمية الحفاظ على تحضّرهم. وسنرى مع الأيام ماذا سيحصل، ولو أنه توجد بالفعل أدلة مقلقة على أن الثمار السامة للتعصّب بدأت بالظهور.

أصبح المواطنون المسنّون هدفًا لسياسات التصفية المصمّمة لتخفيف الضغط عن مؤسسات الرعاية الصحية العامة المنهكة. وهناك مقترحات عامة غريبة، أبرزها من دان باتريك، نائب حاكم ولاية تكساس، بأنه يجب على «الأجداد» أن يكونوا مستعدين للتضحية بأنفسهم من أجل الوظائف والنمو الاقتصادي. تنشر وسائل الإعلام الرئيسة في الهند تغطيات تلقي باللوم على المسلمين ومساجدهم لنشر الفيروس وللتآمر لنشر الإرهاب. كما أن هناك نزعات استشراقية

وهناك مقترحات عامة غريبة، أبرزها من دان باتريك، نائب حاكم ولاية تكساس، بأنه يجب على «الأجداد» أن يكونوا مستعدين للتضحية بأنفسهم من أجل الوظائف والنمو الاقتصادي

مسمومة جديدة بدأت في الظهور، فالحديث التحريضي في لندن وبروكسل وكوبنهاغن ونيويورك ومدنٍ أخرى عن «الفيروس الصيني»، مع الإساءة اللفظية والجسدية التي تعرض لها صينيون لقيامهم ببساطة بارتداء الأقنعة الضرورية، أو فقط لمجرد أنهم صينيون. كما تنتشر «ميمز Memes" وإشاعات كارهة للآسيويين بشكل عام عبر منصات مثل "فور تشان ٤Chan"، و"جاب Gab" وتيليغرام.

ومن مفارقات القدر، يتصاعد الاستشراق هذه المرة من الشرق. فلقد تصدّر تويتر الهند وسم «#فيروس الصين #ChinaVirus"، ويقول المرشدون الروحيون هناك علنًا أن الصينيين "يؤدّبون" بسبب "تعذيبهم للحيوانات" وشرب حساء الخفافيش. يجزم العديدون في الهند بأن الفيروس سلاح بيولوجي يستعمله الصينيون لإحكام سيطرتهم العالمية. أديش أغاروالا رئيس نقابة محامي الهند ورئيس مجلس الحقوقيين الدولي تقدّم بقضية لمجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة ضدّ الصين لارتكابها "اعتداءات جسيمة ضد البشرية حول العالم". وداخل الصين (يخبرني أصدقاء هناك) عن تمتمة عنصرية تدّعي أن أصل الفيروس من الولايات المتحدة. وهناك إشاعات صينية ترى أن الغربيين من آكلي السلطة مسؤولون عن الانتشار المستمر للفيروس. وكما تدفع البطاطا الساخنة يد حاملها إلى تمريرها سريعًا لغيره، تبعث هذه القصص الخيالية معانٍ جديدة في العبارة القديمة :"أيام السلطة"[١]. وتُطلق نوبات ضحك صاخبة من الاندونيسيين والتايوان المحبين لسلطة القادو قادو.

الاشتراكية بين عشية وضحاها:

تذكرنا رواية الطاعون لألبر كامو ورواية العمى لجوزيه ساراماغو بأن مواسم الأوبئة تُفصح عن أسوأ ما في البشرية، من لامبالاة بالآخرين وعنف ضد المرأة ونزعات أنانية. أجسام الآخرين ولمسهم وتنفسهم وحتى مجرّد وجودهم في الحياة يصبح مُستفزًّا. وهذا ينطبق على وبائنا الحالي ولكن مجددًا، المسؤولون مختلفون هذه المرة.

تضخيم وسائل الإعلام من هلع التكديس والاقتتال على ورق المرحاض في المحلات المكتظّة يضلّلنا تشويق هذه المشاهد عن المحتالين المتخفين.

من دروس هذا الوباء أن عصر النيوليبرالية الممتد لأربعة عقود مسؤول لا عن التدهور الحاصل وفقط، بل عن اتساع الفجوة بين الفقراء والأغنياء، والتقشف القسري بعد وصول النظام البنكي لشفا الهاوية، والاحتباس الحراري وإبادة الحيوانات. ونرى الآن كيف أن الحكومات المؤيدة بشكل مطلق لسياسات السوق الحر تضع على أجندتها تصفية أنظمة الصحة العامة ونقل الديون الصحية ومخاطرها على حساب الأفراد والأسر.

١- المقصود باللغة الإنقليزية (Salad days)، وتعني أيام الشباب والعنفوان.

من دروس هذا الوباء أن عصر النيوليبرالية الممتد لأربعة عقود مسؤول لا عن التدهور الحاصل وفقط، بل عن اتساع الفجوة بين الفقراء والأغنياء، والتقشف القسري بعد وصول النظام البنكي لشفا الهاوية، والاحتباس الحراري وإبادة الحيوانات

والنتيجة الفاضحة في عديد من الحالات، بما في ذلك الدول الأغنى في العالم، أن مؤسسات الصحة العامة عاجزة ومنهكة. ولذا تم تجنيد الجيش لإيصال إمدادات طارئة لمستشفى سانت توماس في لندن، وتحويل الحكومة الفرنسية لقطارات TGV إلى مستشفيات متنقلة، ويتوسّل الأطباء في مستشفيات نيويورك للحصول على أقنعة وهم يطلبون في نفس وقت شاحنات تبريد لأخذ المرضى الذين لم يتمكنوا من إنقاذهم.

حتمًا سنشهد في الشهور والأعوام القادمة الجشع الرأسمالي والربح الخاص الاستغلاليّ، وسنرى لماذا يجب أن يوضع مذهب التملكية الفردانية (Possessive Individualism) تحت مراقبة سياسية مدعومة بمؤسسات خدمة عامة أقوى وأكثر مرونة. وفي سياق هذا النقاش، الارتباك الكبير الذي سببه الوباء الجديد يختلف عن ارتباك عام ٢٠٠٨، ففي ذلك الوقت أُنقذت الأنظمة بعد قيام الدولة بضخ تمويلات هائلة، تبعه فرض للتقشف على المواطنين. وقد شكل الأمر نزعة اشتراكية بالنسبة للأثرياء، فيما ترك البقية تحت رحمة قانون غاب للرأسمالية، أي يأكل القوي الضعيف وينجو كل واحد بنفسه من الغرق.

أما بالنسبة للوباء الكبير، فالأمر مختلف. فلن يكفي الاكتفاء بإنقاذ مشاريع الأعمال والبنوك الكبيرة، بل يجب الاهتمام عاجلا بالمواطنين ورعايتهم هذه المرة، وذلك عبر الدفع المباشر للمواطنين، وزيادة إعانات البطالة وسلال الأغذية، وتأجيل سداد الديون ووقف إخلاء السكّان المستأجرين. أما من سيدفع ثمن هذا التحوّل الاشتراكي فهذه مسألة سياسية لم تحسم بعد، إلا أنه ما من شك أن الخطط ترسم الآن ليدفع الفقراء ويتم تعويض الأغنياء.

يمكن أن نرى لمحة من المستقبل في مثال الحكومة اليونانية التي تمنح الشركات الخاصة عقودًا سخية لنشر إعلانات «ابقوا في المنزل»، وتدفع للمؤسسات البحثية الخاصة بدلًا من الجامعات ومراكز البحث الحكومية لإجراء فحوص الفيروس.

وقد تخلت الحكومات المنتخبة في مناطق المحيط الأطلسي، والمحيط الهادئ وآسيا عن تبنيها لرأسمالية بلا قيود، وحلّ علينا عصر اشتراكية جديد، دون مقاومة تذكر من الأغنياء، يعززه الخوف من انهيار اقتصادي ووفيات كثيرة، وخطر فقدان تريليونات الدولارات من خزينة الدول.

هذا التحول السريع للاشتراكية لا يعني أن المواطنين ينعمون بحياة وردية، فهنالك اختلال في توزيع فرص استخدام مرافق العناية بالأطفال وعيادات الفحص، وسعة الإنترنت، والغذاء والمساحة المناسبة للعيش. كما أن معدلات العنف المنزلي ضد المرأة ارتفعت بشكل ملحوظ ومعها مستويات التعاسة الزوجية. وفي الهند وتحت إشراف حكومة ناريندرا مودي أُعلن حجر كامل لثلاثة أسابيع لـ«حماية كل مواطن»، واندفع أبناء الطبقة المتوسطة وفوق المتوسطة لتكديس الأغذية والمؤن والدواء، وفرضَ الحجر التشرّد والفاقة على عشرات الآلاف من

ورغم جشع وقسوة هذه الفوارق، إلا أن
التحوّل الاشتراكي الذي اعتنقته معظم
دول العالم الديمقراطي له أهمية عميقة

العاملين المهاجرين والذين تعرضوا للضرب والرش بالمواد الكيميائية من طرف الشرطة. إنه من الصحيح القول بأن الجميع متساوون في هذا الوباء الكبير، إلا أن البعض متساوون أكثر بكثير من البقية.

ورغم جشع وقسوة هذه الفوارق، إلا أن التحوّل الاشتراكي الذي اعتنقته معظم دول العالم الديمقراطي له أهمية عميقة. ملفتٌ لحذر الحكومات المنتخبة من هشاشة موقفها أمام سخط مواطنيها واستيائهم. وليس للأمر صلة بكون الفيروس ذا طابع ديمقراطيّ، بل ما يجعل حكومات العالم متأهّبة هو معرفتها بأن سلطتها في النهاية تعتمد على رضا رعاياها.

وقد أجبرهم الوباء الكبير على استيعاب أن المواطنين المضغوطين والضعيفين سيرفضون جولة جديدة من التقشّف، لأن التقشف في هذه الظروف لا يعني إفقارهم فحسب، بل يعني موتهم الجماعي.

القيادة

سيروي المؤرخون في المستقبل أن ما نشهده اليوم لحظة فاضحة لنفاق العالم الأطلسي الحديث، المفتخر بنفوره من الموت واحتفائه بالحياة، وقد تجلّت هذه الازدواجية لفترة وجيزة في حربي فيتنام والعراق، ولكن النطاق هذه المرة أوسع بكثير. فالموت ليس محصورًا في أماكن بعيدة، ولا يمكن نسبته للإرهاب، وليس مخفيًا مثلما يتعلق الأمر بضحايا حوادث السير، أو في غرف التعذيب السرية.

فحاصد الأرواح حاضر معنا، يقوم برفع منجله متجولًا بحرية بيننا، غائب لا نراه ولكنه حاضر بوضوح في كل مكان.

يشرح الانتشار الواسع للموت سبب التحوّل للاشتراكية وتوتّر الحكومات، ويرينا الصعوبات الجديدة التي يواجهها القادة المنتخبون لتفسير ما يقومون به لمواطنيهم.

ويتطلب زمن الوباء قادة يجيدون تحفيز المواطنين بكسب احترامهم.

يُظهر القادة الديمقراطيون الحقيقيون تألق أسلوبهم. يستمعون ويتعلمون من الآخرين، ويعرفون قيمة الخبراء؛ فالحكماء يذكّرونهم بأنهم لا يعرفون كل شيء، كما يقول نيلز بور. والقادة الحقيقيون متزنون وهادئون من الداخل، يتقنون السخرية من أنفسهم دون أن يتحولوا لمهرجين. ويقفون كالجبال في المواقف الصعبة، لديهم شجاعة الوقوف أمامها واتخاذ قرارات معقدة لإنقاذ حياة الناس وحمايتهم من خطر دمار اقتصادي واجتماعي.

يتفادى هؤلاء القادة الدوغمائية ولا يقدّسون السلطة لذاتها، والأهم من كل ذلك، يقرّون متواضعين باعتمادهم الشديد على الناس الذين يقودونهم، ولا يقودونهم بالإجبار بل بإقناعهم بالاقتداء بقادتهم.

بمرور الأيام ومع ظروف الوباء الحالية سنعرف إذا ما سيكون باستطاعة دول مثل الولايات المتحدة أن تلد قادةً حقيقيين في المستقبل بأعداد كافية على كل المستويات. ولكن أصبح من الواضح في الظرفية الراهنة أن بعض التمثيليات لا تقنع أحدًا، فالكذب والكلام الفارغ صارا منبوذين، وزاد الاستخفاف بالمهرجين والمنافقين، وأصبحت الناس تسخر من الذين يوعدون بالمعجزات. ويظهر بعض القادة بلباس المجرمين الذين يستحقون على أقل تقدير محاكمة وحجرًا لمحاولتهم إبقاء بلدانهم مفتوحة للأعمال التجارية بإصرارهم على «عودة» العاملين «للوضع الطبيعي» (جايير بولسونارو) وبالترويج لمبدأ «حصانة القطيع»، والمعتقد التنفعيّ من الموت الذي يرى بأن السماح للفيروس بالانتشار وزيادة معدلات الوفيات هو الحل الأمثل لتحقيق النمو الاقتصادي على المدى البعيد وخفض نفقات الدولة على النظام الصحي.

قانون الطوارئ

ربما سيعاقب ويُنهر القادة المراوغون في الشهور والأعوام القادمة لأسلوبهم النفعي ومتاجرتهم بالموت، أكثر مما حصل مع أي وباء مضى. فظهور وانتشار الوباء يحصل الآن في عصر التواصل السهل والديمقراطية الرقابية، والحياة بالكامل أصبحت موثّقة في الإعلام. بالإضافة إلى ذلك، تفقد الانتخابات مركزيّتها، وتحل مكانها مؤسسات ضخمة للرقابة العامة تخضع السلطة لرقابة الإعلام بمستوى غير مسبوق. وهذه الحقيقة توضّح وجه اختلاف آخر لهذا الوباء الكبير عن وباء الإنفلونزا الروسية والإنفلونزا الإسبانية، اللذين وصل خبرهما عن طريق رسائل التلغراف البطيئة والقوارب البخارية والصحف المطبوعة، على عكس وبائنا الحالي الذي ينتشر خبره بسرعة البرق ويتناوله الإعلام العالمي ليلَ نهار مشيعًا الخوف من المرض والموت على نطاق واتساع لم نشهده سابقًا.

أشار مارشال ماكلوهان إلى أن تقنيات الإعلام تشكّل و«تقطع» أجسادنا، إذ تعيد ترتيب إحساس الجسد بما فوقه وأسفله، والموجود هنا وهناك.

فاذا كانت السيارات قد هددت ثقافة المشي، واذا كانت الهواتف رغم ايصالها للصوت قد أنهت فن كتابة الرسائل، فإن الآن وعلى نحو لا مثيل له، تعيد منصات الإعلام العالمية والمحلية تشكيل أجسادنا. وفي مسعاها لكسب الجمهور وتطوير سمعتها وزيادة أرباحها من عوائد الإعلانات، تصور وسائل الاعلام الوباء على أنه تهديد شامل للجسد السياسي.

ينقل الصحفيون أنّه في ٨٠% من الحالات يكون الفيروس مرضًا خفيفًا إلا حين يتعلق الأمر بالمرضى الذين يعانون من أمراض أخرى مثل السكري والأمراض القلبية الوعائية.

وفي نفس الوقت يقول الصحفيون أن العدوى قاتلة أكثر من الإنفلونزا الموسمية بـ١٠-٢٠ مرة، وأنها تنتشر على نطاق أوسع من الفيروسات السابقة مثل سارس وميرس والإيدز. ويقولون أننا لا نعرف إذا ما كان الفيروس يتلاشى أم يعود من جديد لينتقم، بموجات منتظمة أو دورات مستمرة، كما حصل في وباء إنفلونزا عام ١٩١٨.

ربما سيعاقب ويُنهر القادة المراوغون
في الشهور والأعوام القادمة
لأسلوبهم النفعي ومتاجرتهم بالموت،
أكثر مما حصل مع أي وباء مضى

تمتاز الديمقراطية الرقابية بتغطية إعلامية مفتوحة، وهذا تحديدًا سبب ضعفها أمام الأخبار التي تشيع الخوف من الإبادة. تحدّث ثيوسيديدس في تاريخ الحرب البيلوبونيسية (٤٣١ ق.م) عن الحمى النمشية التي أودت بحياة ثلث مواطني أثينا الديمقراطية وأشعلت دمارًا سياسيًا. فشائعات «موت الناس كالأغنام» التي يتناقلها الناس بالكلام حفّزت الناجين على العيش بتهوّر وأنانية. وانتشر «ازدراء الأخلاق المقدّسة والوثنية» ما أدى لـ»فوضى أعظم».

يضرّ وباؤنا الكبير بالديمقراطية أيضًا، ولكن بطرق مختلفة وبحجم مُفاجئ هذه المرة. فمخاوف المرض و»الأذى العالمي الناتج عن الوفيات الوبائية» (الكلمات من الديكاميرون لجيوفاني بوكاتشيو) تعطي فرصةً للحكومات لتصرّ على فرض حالة الطوارئ لحماية مواطنيها. ويبدو تبريرهم مقنعًا وبسيطًا: إما أن نعيش أو نموت جميعًا، ولذلك فمحاولة النجاة بلا شك تشكل واجبا جماعيا.

وبلمح البصر ودون سابق إنذار ترمى جانبًا الديمقراطية الرقابية وهياكلها التشاركية للسلطة. يقول إيمانويل ماكرون «إذا انخرطت بالحرب فادخل بكليّتك». وهذا يعني بأن الحرب على العدو الداخلي الدقيق ذي التاج الملوّن تتطلب قيود زمن الحرب. أصبحت التجمعات العامة محددة بعدد أصبح يتناقص من عشرة أشخاص، إلى خمسة، إلى أربعة، إلى ثلاثة، إلى شخصين. وأعاد إغلاق المدارس أكثر من نصف مليار طفل إلى البيوت، وفقًا لليونسكو.

وقد علّقت جلسات البرلمانات التي تمارس أدوارا استشرافية تكشف القادم والتي تقوم بتمثيل مختلف المجتمعات المضغوطة. وعلّقت أنشطة السينما والمطاعم والبارات، والنوادي وصالات الرياضة، والمساجد والكنس والكنائس والمعابد. وألغيت الفعاليات المفتوحة وتوقفت التجمعات الانتخابية. وأصبحت تحلق في سماء شمال كاليفورنيا طائرات مسيّرة صينية مع كاميرات ومكبرات صوت للتأكد من لزوم المواطنين بيوتهم وعدم خروجهم إلا للضرورة. وأصبحت بعض الأساليب القديمة تستخدم في دول مثل إيطاليا وفرنسا وإسبانيا، إذ نزل مئات الآلاف من ضباط الشرطة والجيش للشوارع. وتستخدم حكومة ولاية أتر برديش الهندية قرارًا للأمراض الوبائية من العصر الاستعماري/الكولونيالي للإطاحة بالمعارضين. وفي كينيا أصبح حظر التجوال من الصباح إلى المساء يفرض بالهراوات والغاز المسيل للدموع. وتم تأجيل الموعد المحدد لاستفتاء شعبي لتغيير دستور العهد الدكتاتوري في تشيلي. ويبدو أن اللحظة الآن، تقريبًا في كل مكان، صارت بيد أجهزة غير منتخبة لإدارة الأزمة بأسماء شبيهة بأسماء مؤسسات الحرب.

فلقد تم عزل البرلمان الوطني في أستراليا لمدة خمسة أشهر، وأنتج الوباء الكبير الهيئة الوطنية لتنسيق كوفيد-١٩، وهي هيئة غير منتخبة يرأسها قطب سابق في شركة تعدين، والتي تشتغل تحت مسؤولية رئيس الوزراء بشكل حصري.

تطول قائمة إجراءات الطوارئ مع مرور الوقت. فالقادة الغوغائيون يستعرضون الآن كالطواويس، مزيّنين بذيول طويلة، بينما ينتزع الانتهازيون مثل فيكتور أوربان ونارندرا مودي لأنفسهم سلطة لامحدودة من الحكم بالمرسومات وفرض عقوبات قاسية على المتهمين بنشر «الأخبار الزائفة». وقد تم زرع بذور التشويش على إجراء الانتخابات. وحتمًا ستأتي لحظة يعلن فيها أن الانتخابات العامة يجب أن تؤجّل أو تلغى.

يضرّ وباؤنا الكبير بالديمقراطية
أيضًا، ولكن بطرق مختلفة
وبحجم مُفاجئ هذه المرة

ولكن المفاجئ -بذات القدر- والصادم، هو ضعف تنظيم المعارضة العامة لإعلان حالة الطوارئ على المستوى العالمي تقريبًا

وصحيح بأن هناك علامات لرفض عام لحالة الطوارئ. حيث يقرع المواطنون الأواني والمقالي ويغنون أغاني التضامن على الشرفات وفي الطرقات. إن كلمة «التباعد الاجتماعي» هي كلمة مضلّلة، فالوباء يحفّز الكثير من التكافل الاجتماعي والكرم بين المواطنين.

وصحيح أن التباعد جسديّ بالفعل، ولكن بفضل الانتشار الواسع لشبكات التواصل الرقمية استمر التواصل والتقارب وبطرق مدهشة. ربما يحمل المستقبل لنا مجتمعات مدنية أقوى، وأقل استهلاكية وعطشًا للمال. وقد صار معقولًا التفكير في رفع دائم للبدلات الرسمية، مع احترام شعبي للعمالة الحرجة التي تسهر على حماية المجتمع ككل من هذا الوباء: وهؤلاء هم الممرضون والأطباء والمعلمون، والمنظفّون والعاملون بطوارئ المستشفيات وناقلو الطرود، والكادحون ليلًا في المستودعات، وموظفو مراكز الاتصالات والمتاجر. ومن الممكن الآن أن نقول أن المواطنين أصبحوا متخلقين أكثر، فلقد طالبوا عبر تويتر بتمويل حكومي وجماهيري لدعم الجوعى والمتضررين، وعقدوا جلسات اجتماعية وحفلات شرب على سكايب، واجتمعوا وتزوّجوا على زووم. ولكن المفاجئ -بذات القدر- والصادم، هو ضعف تنظيم المعارضة العامة لإعلان حالة الطوارئ على المستوى العالمي تقريبًا.

لا تحل المشاكل بالصمت وبالاستجابة لخبراء يبررون القمع بلغة مأخوذة بشكل مباشر من الأعمال الكلاسيكية المعادية للديمقراطية. ومن المحزن الطريقة المتكررة التي يتغزل بها بروفيسور بجامعة كامبريدج حبًا بليفاثان توماس هوبز (١٦٥١م.) لإشارته لـ«أصل السياسة»، وهو أنه «يحقّ لبعض الناس أن يخبروا الآخرين بما يجب عليهم فعله». ويضيف ديفيد رونسيمان:»تكشف الديمقراطيات في ظل الحجر الكامل ما تشترك به مع الأنظمة السياسية الأخرى: هنا أيضًا تتمحور السياسة حول السلطة والنظام ”.

هذه التبريرات لحالة الطوارئ تدل على الجهل والسخف بشكل خطير. ما لم يُقاوم تركيز السلطة المطلقة في يد واحدة فسيؤدي دومًا لالتصاق أكيدٍ بالسلطة. وتصبح الإجراءات المؤقتة ترتيبات دائمة. فالسلطة الممنوحة سلطة مشروعة، والسلطة المنفرطة يصعب استرجاعها. وقد يعتاد الناس الخضوع بسبب حكم الطوارئ وينمّي ذلك العبودية الطوعية. وهي بذلك أم الاستبداد، وكما يقول بيرسي بيش شيلي في قصيدة الملكة ماب (١٨١٣)، السلطة المطلقة «مثل وباء ماحق»، تمثّل -ويا للغرابة- الفيروس الذي تدّعي أنها تحاربه.

الديمقراطية الرقابية

للمؤدلجين والقائمين على قانون الطوارئ طريقة أخرى لتضليلنا. يشتّتون انتباهنا عن مجموعة من البدائل الديمقراطية المثمرة بالضرورات -المفترضة- لحالة الطوارئ.

تايوان وكوريا الجنوبية في منطقة آسيا والمحيط الهادئ مثالان معاكسان عن كيفية التعامل

مع الوباء دون الحاجة لمؤسسات عمياء. الوضع ليس فردوسيًا هناك ولكن القدرة على الكشف المبكر وتطور أساليب الفحص العامة التي يستخدمونها لاحتواء العدوى تبعث معنى جديدًا بالكامل لكلمة سقراط الأثيرة، حياة بلا فحص (Examination) لا تستحق أن تُعاش. تستخدم هذه الحكومات مبادئ "التفكير في حالات الطوارئ" و"المساواة في النجاة" (إيلين سكيري). يستهدفون الفيروس بتأكدهم من أن الروح المُعاكسة والمعارضة للسلطة الاستبدادية تنتشر أكثر. إنهم يمارسون الديمقراطية الرقابية.

الإجراءات الشفافة واستمرار التواصل المفتوح من صميم أنظمتهم للرعاية الصحية العامة. «يسطّحون المنحنى» بالتواصل الشفاف مع المواطنين وبتمكينهم ليستلموا زمام الأمور بأيديهم، باستخدام مواقع الكشف أثناء قيادة السيارة، وبأكشاك خاصة للمستشفيات (وصل متوسط الفحوصات في الولايات المتحدة بمنتصف مارس ٢٠٢٠ إلى ٧٤ فحص لكل مليون مواطن، مقابل ٥٢٠٠ فحص لكل مليون في كوريا الجنوبية). تسير الحياة بشكل طبيعي في تايوان مع عدد ضئيل نسبيًا من الإصابات وقليل من الوفيات. كانت الحكومة أسرع بكثير من نظيراتها بمراقبة الرحلات القادمة من ووهان (منذ ٣١ ديسمبر ٢٠١٩)، فقد تعلمت الدرس من ظهور فيروس سارس عام ٢٠٠٣ وإنفلونزا H١N١ عام ٢٠٠٩. خزّنت تايوان لسنوات عديدة أدوات التعقيم والفحص والأقنعة ومعدات أخرى. كانت الحكومة واضحة بشأن استخدام معلومات مواقع الهواتف النقالة لمعرفة أماكن المصابين بالعدوى، ثمّ تستخدم هذه البيانات لعمل "حاجز إلكتروني" حول من يحتمل إصابته. وأنشأت هيئة رقابية مالية شبه حكومية، هي الأولى من نوعها في العالم، باسم مركز القيادة المركزية للوباء، من أطباء منتخبين من كل المستويات والقادمين من النظام الصحي الواسع والمقتدر للبلاد، وتقدّم الهيئة موجزًا يوميًا للمواطنين وتتشارك سلطة اتخاذ القرارات مع وزير الصحة.

الصين

الصيغة العملية في هذه البلدان هي أن حالة الطوارئ تصبح ضرورية فقط عندما تخفق الديمقراطية. نعلم أن الأسواق المفتوحة تخفق، والمِثلُ ينطبق على الديمقراطيات، ويبيّن كتابي السلطة والتواضع (٢٠١٨م.) كيف تنحو الأمور منحى سيئًا في أنظمة السلطة الهرمية المعقدة في حال غياب آليات المراقبة والزجر والمسائلة الديمقراطية.

يحدث أن تخفق الديمقراطية، والمعادلة تكاد تكون رياضية: دون آليات مساءلة متينة تصبح الدولة القوية ومؤسسات الأعمال خرقاء ورعناء؛ وتصبح القرارات متسمة بالتأخر والاستهتار والحمق وتؤدي إلى إيذاء حياة المواطنين وتسميم بيئتهم، وهذه العواقب تكون عادة وليست استثناء.

نعلم أن الأسواق المفتوحة تخفق، والمِثلُ ينطبق على الديمقراطيات، ويبيّن كتابي السلطة والتواضع (٢٠١٨م.) كيف تنحو الأمور منحى سيئًا في أنظمة السلطة الهرمية المعقدة في حال غياب آليات المراقبة والزجر والمسائلة الديمقراطية

ينطبق هذا بلا شك على جمهورية الصين الشعبية. تذكر لو شا هوا -الأنثروبولوجية البارزة- أن طريقة تعامل بكين مع ظهور وانتشار الفيروس هي استنساخ مباشر لأساليب معادية للديمقراطية مورست للتعامل مع أمراض سابقة مثل الجذام، والإيدز وسارس. وتذكر كيف تولّى في البداية مسؤولو الحزب كلّ الأمور لتسوء جميعها، لأنهم ببساطة لم يحركوا ساكنًا. وسُحق جهد الأطباء والممرضين الشجعان والمراقبة العامة المستقلّة للأنماط الجديدة (Trends)، وفشلت محاولة الباحثين بتصحيح الأخطاء وتشخيص تسلسل الفايروس الجيني. وتقول آخر التقارير المستقلة لباحثين صينيين أنه لو تحرك الحزب في منتصف يناير، أي قبل أسبوع من الموعد الذي تحرك فيه، لربما قلّت العدوى ثلثي ما هي عليه، ولو تحرّك الحزب مبكرًا ثلاثة أسابيع لتمت وقاية ٩٥٪ من حالات السعال الجاف والحمى المفرطة والخمول المُقعد وانسداد الرئتين. ولكن لم يحصل هذا، وبدلًا منه جاءت محاولات التصحيح السياسية ومحاولات "حفظ ماء الوجه" (bǎo miànzi)، مع شك وتردد لكي لا يفوّتوا احتفالات رأس السنة الصينية القادمة أو يشوّشوا على اجتماعين معلنين للحزب (من ٦ يناير وحتى ١٧ يناير ٢٠٢٠)، وغطّى الحدثان على الحقيقة. وفي النهاية فشلت الديمقراطية. وولد الوباء الكبير مشعلًا كارثة بيئية عالمية بطفرة فيروسات خطيرة العدوى وسريعة الانتشار.

ارتبك مسؤولو الحزب مع تسريب التقارير وانطلاق الاحتجاجات على منصات التواصل الاجتماعي التي أظهرت حجم العدوى في ووهان والمناطق القريبة. لأنهم يعرفون جيدًا أن «القرود تنتشر عندما تسقط الأشجار»، ولخوفهم من التمرد أُجبروا على الاعتراف والتحرّك. وسخّرت قوة الدولة لإغلاق البلاد وحُجر ٨٠٠ مليون إنسان مع تعليق الحياة الاقتصادية تدريجيا. أُصيب بالعدوى ٨٠ ألفًا وترك ٣,٣٠٠ للموت في شقق معزولة أو في العنابر الصحية المكتظّة والمستشفيات المؤقتة.

وضحّى الحزب على عادته ببعض مسؤولي الصحة الكبار وأمناء الحزب في مقاطعة ووهان وخوبي لكذبهم وسوء إدارتهم. ثم ظهر المستبد شي جين بينغ مرتديًا القناع، وكأنه المنقذ المنتظر. وخطوة بخطوة تمت السيطرة على المرض داخل الصين.

الاستبداد الجديد

من أغرب النتائج وأقلها احتمالًا أن الدولة التي خرج منها الوباء الكبير تبدو الآن كما لو أنها ستستفيد من القوة الناعمة والتكنولوجية لكونها أول اقتصاد سياسي كبير يتخطى المرض. لا نعرف بأية سرعة سيتعافى الاقتصاد الصيني ليعود للربح، أو إذا ما سيكون النموذج المستقبلي للنمو الرأسمالي للدولة أكثر مساواة ومحافظة على البيئة، وموجهًا بشكل أفضل لرخاء مواطنيها. يشرح كتابي القادم الاستبداد الجديد (٢٠٢٠) لماذا يجب ألّا نستهين بمرونة الصين الداخلية وثباتها عالميًا. قد يكون هذا الوباء فرصتها الذهبية، ولحظة انعطاف نيكسونية- كسنجرية جديدة تستغلّ فيها الصين الفوضى والمرض في الولايات المتحدة جيوسياسيًا لتتقدم دون أن تطلق رصاصة واحدة، وتتابع بناء إمبراطوريتها العالمية محطمةً وهم التفوق الأمريكي.

قد يكون هذا الوباء فرصتها الذهبية، ولحظة انعطاف نيكسونية- كسنجرية جديدة تستغلّ فيها الصين الفوضى والمرض في الولايات المتحدة جيوسياسيًا لتتقدم دون أن تطلق رصاصة واحدة، وتتابع بناء إمبراطوريتها العالمية محطمةً وهم التفوق الأمريكي

إذا صحّت قراءتنا للفنجان، فستكون جمهورية الصين الشعبية أوّل قوة كبرى تقف بعد سقوط العالم. ستُحطم الآمال الحالمة بتوسّع «التعاون العالمي والثقة» (يوفال نوح هراري)، وسيحطّ واقع أكثر قسوة من الحديث الشاعري عن الوباء الكبير كسبب لبداية جديدة عندما «تنفصل» المجتمعات ككلّ «عن الماضي وتتخيل عالمها من جديد» (أروناداتي روي). وبعيدًا عن كل ذلك سينتقل في النهاية مركز الثقل الجيوسياسي العالمي بقيادة بكين ليكون في منطقة المحيط الهادئ وآسيا. وبعد إضعاف الولايات المتحدة لدرجة لا عودة عنها، ومكافحة دول الاتحاد الأوروبي للبقاء، ستطوَّق مُثل المساواة ومؤسسات تشارك السلطة في النموذجين التايواني والكوري الجنوبي من الديمقراطية الرقابية، أو ستُدفع وترمى جانبًا بشكل فاضح.

وليتحقق كل هذا لن يكفي أن يتكاتف الصينيون معًا في معاناتهم والقسم بالولاء بفخر لنظامهم الحزبي الواحد. بل عليهم أن يتناسوا أهم درس من هذا الوباء الكبير: أنه دون مراقبة ديمقراطية حرّة للسلطة على «كوكبنا الفيروسي» (بيتر بيوت) المأهول بتريليونات الجسيمات الفيروسية الدقيقة المتشوّقة لاختطاف الخلايا الحية، بلا شك ستُولد أوبئة جديدة لتنتشر ديمقراطيًا، داخل الصين وخارجها. وعلى مواطني العالم الآخرين أن يتجاهلوا المبدأ الذي أثبتته الأزمة: وهو أن الفيروسات المتحوّلة تحب انعدام المساءلة العامة. فالمواطنون الذين سيقبلون بحالة الطوارئ القائمة ويتجاهلون ما يلوح في الأفق من الأفضل أن يسمّوا رعايا. فبتجاهل العالم من حولهم ما عليهم إلا الاستمرار بحجر أنفسهم. وليتيقنوا أن الديمقراطيات ستصبح في هذه الأزمة أشد أعدائهم. وفي المحصلة، ستشتدّ قبضة الصين على أجزاء واسعة من العالم بالأساليب الصينية لفرض السيطرة. استبداد جديد يتقن فنون نشر العبودية الطوعية، ونهايةً سيصبح ما يحب المثقفون الصينيون تسميته «الحكم الرشيد» (liánghǎo de zhìlǐ) صفة جوهرية للمستقبل المدمِّر لكوكبنا. حينئذٍ سيكون الاستبداد مستقبل الديمقراطية.

وتُخرّب أعمدة اتصال شبكات الجيل الخامس 5G في المملكة المتحدة ويسيئ نشطاء المؤامرات لمهندسي الاتصالات، واثقين بأن الفيروس وتحسين سعة الشبكة خطةً صينية موحّدة للسيطرة على البلاد.

عن المؤلف

الدكتـور جـون كيـن هـو أسـتاذ العلـوم السياسـية بجامعـة سـيدني – أسـتراليا ومركـز برليـن للعلـوم الاجتماعيـة (WZB)، كمـا يشـغل منصـف المديـر العـام المؤسـس لشـبكة سـيدني للديموقراطيـة. وقـد صـدر للدكتـور كيـن العديـد مـن المؤلفـات، أبرزهـا كتابه حيـاة ومـوت الديوقراطيـة (٢٠٠٩).

عن الشرق

منتـدى الشـرق هـو شـبكة دوليّـة مسـتقلّة تتمثّـل مهمتهـا فـي تطويـر اسـتراتيجيّات طويلـة الأمـد لضمـان التطـور السياسـي، والعدالـة الاجتماعيّـة، والازدهـار الاقتصـاديّ لشـعوب منطقـة الشـرق الأوسـط. وسـيقوم بتنفيـذ ذلـك مـن خـلال الأبحـاث المتفانيـة فـي العمـل العامّ، وبتعزيـز مُثُل المشـاركة الديمقراطية، والحـوار بيـن أصحـاب المصالـح المتعـددة والعدالـة الاجتماعيّـة

Address: Istanbul Vizyon Park A1 Plaza Floor:6
No:68 Postal Code: 34197
Bahçelievler/ Istanbul / Turkey
Telephone: +902126031815
Fax: +902126031665
Email: info@sharqforum.org

AL SHARQ
STRATEGIC
RESEARCH
للأبحاث الاستراتيجية

research.sharqforum.org

SharqStrategic